ظرف لمضمر هو صفة عذابا أى عذابا كائنا يوم الخ وليس ذلك اليوم الا يوم القيامة وكذا على ما قيل من أنه بدل من عذابا أو ظرف لقريبا وعلى هذا الاخير قيل لا حاجة الى توجيه القرب لان العذاب في ذلك اليوم قريب لا فاصل بينه وبين المرء ونظر فيه بان الظاهر جعل المنذر به قريبا في وقت الانذار لانه المناسب للتهديد والوعيد اذ لا فائدة في ذكر قربه منهم يوم القيامة فاذا تعلق به فالمراد بيان قرب اليوم نفسه فتأمل والظاهر أن المرء عام للمؤمر والكافر وما موصولة منصوبة بينظر والعائد محذوف والمراد يوم يشاهد المكلف المؤمن والكافر ما قدمه من خير أو شر وجوز أن تكون ما استفهامية منصوبة بقدمت اى ينظر أى شيء قدمت يداه والجملة معلق عنها لان النظر طريق العلم والكلام في قوة ينظر جواب ماقدمت يداه وفي الكلام على ماذكره العلامة التفتازانى تغليب ماوقع بوجه مخصوص على ماوقع بغير هذا الوجه حيث ذكر اليدان لان اكثر الاعمال تزاول بهما فجعل الجميع كالواقع بهما تغليبا وقرأ ابن أبى اسحق المرء بضم الميم وضعفها أبو حاتم ولا ينبغى أن تضعف لانها لغة بعض العرب يتبعون حركة الهمزة فيقولون مرءو مرأو مرء على حسب الاعراب ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ تخصيص لاحد الفريقين اللذين تناولهما المرء فيما قبل منه بالذكر وخص قول الكافر دون المؤمن لدلالة قوله على غاية الخيبة ونهاية التحسر ودلالة حذف قول المؤمنين على غاية التبجح ونهاية الفرح والسرور وقال عطاء المرء هنا الكافر لقوله تعالى انا انذرناكم وكان الظاهر عليه الضمير فيما بعد الا انه وضع الظاهر موضعه لزيادة الذم وفيه ان تناول الفريقين هو المطابق لما سبق من صف يوم مفصل لما اشتمل على حالهما وهو الوجه لقوله تعالى فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا وانا انذرناكم لايخص الكافر لان الانذار عام للفريقين أيضا فلا دلالة على الاختصاص وقال ابن عباس وقتادة والحسن المراد به المؤمن قال الامام دل عليه قول الكافر فلما كان هذا بيانا لحال الكافر وجب أن يكون الاول بيانا لحال المؤمن ولا يخفى مافيه من الضعف كاستدلال الرياشى بالآية على أن المرء لا يطلق الا على المؤمن وأراد الكافر بقوله هذا ليتنى كنت ترابا في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف أو ليتنى كنت ترابا في هذا اليوم فلم أبعث وعن ابن عمر وأبى هريرة ومجاهد ان الله تعالى يحضر البهائم فيقتص لبعضها من بعض ثم يقول سبحانه لها كونى ترابا فيعود جميعها ترابا فاذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله والى حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض ذهب الجمهور وسيأتى الكلام في ذلك في سورة التكوير ان شاء الله تعالى وقيل الكافر في الآية ابليس عليه اللعنة لما شاهد آدم عليه الصلاة والسلام ونسله المؤمنين ومالهم من الثواب تمنى أن يكون ترابا لانه احتقره لما قال خلقتنى من نار وخلقته من طين وهو بعيد عن السياق وان كان حسنا والتراب على جميع ما ذكر بمعناه المعروف والكلام على ظاهره وحقيقته وجوز لا سيما على الاخير أن يكون المراد بقول ليتنى كنت في الدنيا متواضعا لطاعة الله تعالى لا جبارا ولا متكبرا والمعول عليه ما تقدم كما لا يخفى

سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة والطامة وهى مكية بالاتفاق وعدد آيها ست وأربعون في الكوفي وخمس واربعون في غيره وعن ابن عباس أنها نزلت عقب سورة عم وأولها يشبه أن يكون قسما لتحقيق ما في آخر عم أو ما تضمنته كلها وفي البحر لما ذكر سبحانه في آخر ما قبلها الانذار بالعذاب يوم القيامة أقسم عز وجل في هذه على البعث ذلك اليوم فقال جل شانه

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ أقسام من الله تعالى بطوائف من ملائكة الموت عليهم السلام الذين ينزعون الارواح من الاجساد على الاطلاق كما في رواية عن ابن عباس ومجاهد أو أرواح الكفرة على ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه وجويبر في تفسيره عن الحبر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وعبد بن حميد عن قتادة وروى عن سعيد بن جبير ومسروق وينشطونها أي يخرجونها من الاجساد من نشط الدلو من البئر اذا أخرجها ويسبحون في اخراجها سبح الذي يخرج من البحر ما يخرج فيسبقون ويسرعون بارواح الكفرة الى النار وبارواح المؤمنين الى الجنة فيدبرون أمر عقابها وثوابها بان يهيؤها لادراك ما أعد لها من الآلام واللذات ومال بعضهم الى تخصيص النزع بارواح الكفار والنشط والسبح بارواح المؤمنين لان النزع جذب بشدة وقد أردف بقوله تعالى غرقا وهو مصدر مؤكد بحذف الزوائد أي اغراقا في النزع من أقاصي الاجساد وقيل هو نوع والنزع جنس أي في هذا المحل وذلك أنسب بالكفار قال ابن مسعود تنزع الملائكة روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ومن تحت الاظافر وأصول القدمين ثم تغرقها في جسده ثم تنزعها حتى اذا كادت تخرج يردها في جسده وهكذا مرارا فهذا عملها في الكفار والنشط الاخراج برفق وسهولة وهو أنسب بالمؤمنين وكذا السبح ظاهر في التحرك برفق ولطافة قال بعض السلف ان الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلا رقيقا ثم يتركونها حتى تستريح رويدا ثم يستخرجونها برفق ولطف كالذي يسبح في الماء فانه يتحرك برفق لئلا يغرق فهم يرفقون في ذلك الاستخراج لئلا يصل الى المؤمن ألم وشدة وفي المنتاج ان النشط حل العقدة برفق ويقال كما في البحر النشطت العقال ونشطته اذا مددت النشوطة فانحلت والانشوطة عقدت يسهل انحلالها اذا جذبت كعقدة التكة فاذا جعلت الناشطات من النشط بهذا المعنى كان أوفق للاشارة الى الرفق والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي كما مر غير مرة للاشعار بأن كل واحد من الاوصاف المعدودة من معظمات الامور حقيق بأن يكون على حياله مناطا لاستحقاق موصوفة للاجلال والاعظام بالاقسام به من غير انضمام الاوصاف الاخر اليه ولو جعلت النازعات ملائكة العذاب والناشطات ملائكة الرحمة كان العطف للتغاير الذاتي على ما هو الاصل والفاء في الاخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة وانتصاب نشطا وسبحا وسبقا على المصدرية كانتصاب غرقا وأما انتصاب أمرا فعلى المفعولية للمدبرات لا على نزع الخافض أي بأمر منه تعالى كما قيل وزعم أنه الاولى وتنكيره للتهويل والتفخيم وجوز أن يكون غرقا مصدرا مؤولا بالصفة المشبهة ونصبه على المفعولية أيضا للنازعات أو صفة للمفعول به لها أي نفوسا غرقة في الاجساد وحمل بعضهم غرقها فيها بشدة تعلقها بها وغلبة صفاتها عليها وكان ذلك مبنيا على تجرد الارواح كما ذهب اليه الفلاسفة وبعض أجلة المسلمين هذا ولم نقف على نص في أن الملائكة حال قبض الارواح واخراجها هل يدخلون في الاجساد أم لا وظاهر تفسير الناشطات انهم حالة النزع خارج الجسد كالواقف والسابحات دخولهم فيه لاخراجها على ما قيل وأنت تعلم أن السبح ليس على حقيقته ولا مانع من أن يراد به مجرد الاتصال ونحوه مما لا توقف له على الدخول وجوز أن يكون المراد بالسابحات وما بعدها طوائف من الملائكة يسبحون في مضيهم فيسبقون فيه الى ما امروا به من الامور الدنيوية والاخروية فيدبرون أمره من كيفيته ومالابد منه فيه ويعم ذلك ملائكة الرحمة وملائكة العذاب والعطف عليه لتغاير الموصوفات كالصفات وأياما كان

فجواب القسم محذوف يدل عليه مابعد من أحوال القيامة ويلوح اليه الاقسام المذكورة والتقدير والنازعات الخ لتبعثن واليه ذهب الفراء وجماعة وقيل اقسام بالنجوم السيارة التي تنزع أي تسير من نزع الفرس اذا جرى من المشرق الى المغرب غرقا في النزع وجدا في السير بان تقطع الفلك على مايبدو للناس حتى تنحط في أقصى الغرب وتنشط من برج الى برج أي تخرج من نشط الثور اذا خرج من مكان الى مكان آخر ومنه قول هميان بن قحافة

أرى همومي تنشط المناشطا ✡ الشأم بي طوراً وطوراً واسطا

وتسبح في الفلك فيسبق بعضها في السير لكونه أسرع حركة فتدبر أمراً نيط بها كاختلاف الفصول وتقدير الازمنة وظهور مواقيت العبادات والمعاملات المؤجلة ولما كانت حركاتها من المشرق الى المغرب سريعة قسرية وتابعة لحركة الفلك الاعظم ضرورة وحركاتها من برج الى برج بارادتها من غير قسر لها وهي غير سريعة أطلق على الاولى النزع لانه جذب بشدة وعلى الثانية النشط لانه برفق وروى حمل النازعات على النجوم عن الحسن وقتادة والاخفش وابن كيسان وأبي عبيدة وحمل الناشطات عليها عن ابن عباس والثلاثة الاول وحمل السابحات عليها عن الاولين وحملها أبو روق على الليل والنهار والشمس والقمر منها والمدبرات عليها عن معاذ واضافة التدبير اليها مجاز وقيل اقسام بالنفوس الفاضلة حالة المفارقة لابدانها بالموت فانها تنزع عن الابدان غرقا أي نزعا شديداً من أغرق النازع في القوس اذا بلغ غاية المد حتى ينتهي الى النصل لعسر مفارقتها اياها حيث الفته وكان مطية لها لا كتساب الخير ومظنة لازدياده فتنشط شوقا الى عالم الملكوت وتسبح به فتسبق الى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات أي ملحقة بالملائكة أو تصلح هي لان تكون مدبرة كما قال الامام انها بعد المفارقة قد تظهر لها آثار وأحوال في هذا العالم فقد يرى المرء شيخه بعد موته فيرشده لما يهمه وقد نقل عن جالينوس انه مرض مرضا عجز عن علاجه الحكماء فوصف له في منامه علاجه فأفاق وفعله فافاق وقد ذكره الغزالي ولذا قيل وليس بحديث كما توهم اذا تحيرتم في الامور فاستعينوا من أصحاب القبور أي أصحاب النفوس الفاضلة المتوفين ولا شك في أنه يحصل لزائرهم مدد روحاني ببركتهم وكثيرا ما تنحل عقد الامور بانامل التوسل الى الله تعالى بحرمتهم وحمله بعضهم على الاحياء منهم الممتثلين أمر موتوا قبل ان تموتوا وتفسير النازعات بالنفوس مروي عن السدي الا أنه قال هي جماعة النفوس تنزع بالموت الى ربها والناشطات بها عن ابن عباس أيضاً الا أنه قال هي النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج والسابقات بها عن ابن مسعود الا أنه قال هي أنفس المؤمنين تسبق الى الملائكة عليهم السلام الذين يقبضونها وقد عاينت السرور شوقا الى لقاء الله تعالى وقيل اقسام بالنفوس حال سلوكها ونطهير ظاهرها وباطنها بالاجتهاد في العبادة والترقي في المعارف الالهية فانها تنزع عن الشهوات وتنشط الى عالم القدس فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق الى الكمالات حتى تصير من المكملات للنفوس الناقصة وقيل اقسام بانفس الغزاة أو أيديهم تنزع القسي باغراق السهام وتنشط بالسهم للرمي وتسبح في البر والبحر فتسبق الى حرب العدو فتدبر أمرها واسناد السبح وما بعده الى الايدي عليه مجاز المعلابسة وحمل النازعات على الغزاة مروي عن عطاء الا أنه قال هي النازعات بالقسي وغيرها وقيل بصفات خيلهم فانها تنزع في أعنتها غرقا أي تمد اعنتها مدا قويا حتى تلصقها بالاعناق من غير ارتخائها فتصير كانها انغمست فيها وتخرج من دار الاسلام الى دار الكفر وتسبح في جريها فتسبق الى العدو فتدبر أمر الظفر واسناد التدبير اليها اسناد الى السبب وحمل السابحات على الخيل مروي عن عطاء أيضا وجماعة ولا يخفى ان أكثر هذه الاقوال لايليق بشأن جزالة التنزيل وليس له قوة مناسبة للمقام ومنها مافيه قول بما عليه أهل الهيئة المتقدمون

من الحركة الارادية للكوكب وهي حركته الخاصة ونحوها مما ليس فى كلام السلف ولم يتم عليه برهان ولذا قال بخلافه المحدثون من الفلاسفة وفي حمل المدبرات على النجوم ايهام صحة مايزعمه أهل الاحكام وجهلة المنجمين وهو باطل عقلا ونقلا كما أوضحنا ذلك فيما تقدم وكذا في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة ايهام صحة مايزعمه كثير من سخفة العقول من ان الاولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض وانقاذ الغريق والنصر على الاعداء وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد على معنى ان الله تعالى فوض اليهم ذلك ومنهم من خص ذلك بخمسة من الاولياء والكل جهل وان كان الثانى أشد جهلا نعم لا ينبغى التوقف في أن الله تعالى قد يكرم من شاء من أوليائه بعد الموت كما يكرمه قبله بما شاء فيبرىء سبحانه المريض وينقذ الغريق وينصر على العدو وينزل الغيث وكيت وكيت كرامة له وربما يظهر عز وجل من يشبهه صورة فتفعل ما سئل الله تعالى بحرمته مما لا اثم فيه استجابة للسائل وربما يقع السؤال على الوجه المحظور شرعا فيظهر سبحانه نحو ذلك مكرا بالسائل واستدراجا له ونقل الامام في هذا المقام عن الغزالى انه قال أن الارواح الشريفة اذا فارقت أبدانها ثم التفق انسان مشابه للانسان الاول في الروح والبدن فانه لا يبعد ان يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة الهاما ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة انتهى ولم أر ما يشهد على صحته في الكتاب والسنة وكلام سلف الامة وقد ذكر الامام نفسه فى المباحث المشرقية استحالة تعلق أكثر من نفس ببدن واحد وكذا استحالة تعلق نفس واحدة بأكثر من بدن ولم يتعقب ما نقله هنا فكأنه فهم ان التعلق فيه غير التعلق المستحيل فلا تغفل وقال في وجه حمل المذكورات على الملائكة ان الملائكة عليهم السلام لها صفات سلبية وصفات اضافية أما الاولى فهى انها مبرأة عن الشهوة والغضب والاخلاق الذميمة والموت والهرم والسقم والتركيب والاعضاء والاخلاط والاركان بل هي جواهر روحانية مبرأة عن هذه الاحوال فالنازعات غرقا اشارة الى كونها منزوعة عن هذه الاحوال نزعا كليا من جميع الوجوه على ان الصيغة للنسبة والناشطات نشطا اشارة الى أن خروجها عن ذلك ليس كخروج البشر على سبيل الكلفة والمشقة بل بمقتضى الماهية فالكلمتان اشارتان الى تعريف أحوالهم السلبية وأما صفاتهم الاضافية فهى قسمان الاول شرح قوتهم العاقلة وبيان حالهم فى معرفة ملك الله تعالى وملكوته سبحانه والاطلاع على نور جلاله جل جلاله فوصفهم سبحانه فى هذا المقام بوصفين أحدهما والسابحات سبحا فهم يسبحون من أول فطرتهم في بحار جلاله تعالى ثم لامنتهى لسبحهم لانه لامنتهى لعظمة الله تعالى وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه فهم ابدا في تلك السباحة وثانيهما فالسابقات سبقا وهو اشارة الى تفاوت مراتبهم في درجات المعرفة وفي مراتب التجلى والثانى شرح قوتهم العاملة وبيان حالهم فيها فوصفهم سبحانه فى هذا المقام بقوله تعالى والمدبرات أمراً ولما كان التدبير لايتم الا بعد العلم قدم شرح القوة العاقلة على شرح القوة العاملة انتهى وهو على مافي بعضه من المنع ليس بشديد المناسبة للمقام ونقل غير واحد أقوالا غير ماذكر في تفسير المذكورات فعن مجاهد النازعات المنايا تنزع النفوس وحكى يحيى بن سلام انها الوحش تنزع الى الكلا وعن الاول تفسير الناشطات بالمنايا أيضا وعن عطاء تفسيرها بالبقر الوحشية وما يجرى مجراها من الحيوان الذى ينشط من قطر الى قطر وعنه أيضا تفسير السابحات بالسفن وعن مجاهد تفسيرها بالمنايا تسبح فى نفوس الحيوان وعن بعضهم تفسيرها بالسحاب وعن آخر تفسيرها بدواب البحر وعن بعض تفسير السابقات بالمنايا على معنى انها تسبق الآمال وعن غير واحد تفسير المدبرات بجبريل يدبر الرياح والجنود والوحى وميكال

يدبر القطر والنبات وعزرائيل يدبر قبض الارواح واسرافيل يدبر الامر المنزل عليهم لانه ينزل به ويدبر النفخ في الصور والاكثرون تفسيرها بالملائكة مطلقا بل قال ابن عطية لا أحفظ خلافا في أنها الملائكة وليس في تفسير شيء مما ذكر خبر صحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما أعلم وما ذكرته أولا هو المرجح عندى نظرا للمقام والله تعالى أعلم وقوله سبحانه ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ منصوب بالجواب المضمر والمراد بالراجفة الواقعة أو النفخة التى ترجف الاجرام عندها على أن الاسناد اليها مجازى لانها سبب الرجف أو التجوز في الطرف بجعل سبب الرجف راجفا وجوز أن تفسر الراجفة بالمحركة ويكون ذلك حقيقة لان رجف يكون بمعنى حرك وتحرك كما في القاموس وهي النفخة الاولى وقيل المراد بها الاجرام الساكنة التى تشتد حركتها حينئذ كالارض والجبال لقوله تعالى يوم ترجف الارض والجبال وتسميتها راجفة باعتبار الاول ففيه مجاز مرسل وبه يتضح فائدة الاسناد وقوله تعالى ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ أى الواقة أو النفخة التى تردف وتتبع الاولى وهي النفخة الثانية وقيل الاجرام التابعة وهي السماء والكواكب فانها تنشق وتنتثر بعد والجملة حال من الراجفة مصححة لوقوع اليوم ظرفا للبعث لافادتها امتداد الوقت وسعته حيث أفادت ان اليوم زمان الرجفة المقيدة بتبعية الرادفة لها وتبعية الشيء الآخر فرع وجود ذلك الشيء فلا بد من امتداد اليوم الى الرادفة واعتبار امتداده مع ان البعث لا يكون عند الرادفة أعنى النفخة الثانية وبينها وبين الاولى أربعون لتهويل اليوم ببيان كونه موقعا لداهيتين عظيمتين وقيل يوم ترجف منصوب باذكر فتكون الجملة استئنافا مقررا لمضمون الجواب المضمر كانه قيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذكر لهم يوم النفختين فانه وقت بعثهم وقيل هو منصوب بما دل عليه قوله تعالى ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أى يوم ترجف وجفت القلوب أى اضطربت يقال وجف القلب وجيفا اضطرب من شدة الفزع وكذلك وجب وجيبا وروى عن ابن عباس أن واجفة بمعنى خائفة بلغة همدان وعن السدى زائلة عن مكانها ولم يجعل منصوبا بواجفة لانه نصب ظرفه أعنى يومئذ والتأسيس أولى من التأكيد فلا يحمل عليه كيف وحذف المضاف وابدال التنوين مما يأباه أيضا ورفع قلوب على الابتداء ويومئذ متعلق بواجفة وهي الخبر على ماقيل وهو الاظهر كما في قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة وجاز الابتداء بالنكرة لان تنكيرها للتنويع وهو يقوم مقام الوصف المخصص نعم التنويع في النظير أظهر لذكر المقابل بخلاف مانحن فيه ولكن لا فرق بعد ما ساق المعنى اليه وان شئت فاعتبر ذلك للتكثير كما اعتبر في شرأ هر ذا ناب وقيل واجفة صفة قلوب مصححة للابتداء بها وقوله تعالى ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى أبصار أهلها ذليلة من الخوف ولذلك أضافها اليها فالاضافة لادنى ملابسة وجوز أن يراد بالابصار البصائر أى صارت البصائر ذليلة لا تدرك شيئاً فكنى بذلها عن عدم ادراكها لان عز البصيرة انما هي بالادراك وبحث في كون القلوب غير مدركة يوم القيامة وأجيب بأن المراد شدة الذهول والحيرة جملة من مبتدا وخبر في محل رفع على الخبرية لقلوب وتعقب بأنه قد اشتهر أن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند السامع حتى قال غير واحد أن الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات فحيث كان ثبوت الوجيف وثبوت الخشوع لابصار أصحاب القلوب سواء في المعرفة والجهالة كان جعل الاول عنوان الموضوع مسلم الثبوت مفروغا عنه وجعل الثانى مخبراً به مقصود الافادة تحكما بحتا على ان الوجيف الذى هو عبارة عن اضطراب القلب وقلقه من شدة الخوف والوجل أشد من خشوع البصر وأهول فجعل أهون الشرين عمدة وأشدهما فضلة مما لاعهد له في الكلام وأيضا فتخصيص الخشوع بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول

تهوين للخطب في موقع التهويل انتهى وأنت تعلم ان المشتهر وما قاله غير واحد غير مجمع على اطراده وان بعض ما اعترض به يندفع على مايفهمه كلام بعض الاجلة من جواز جعل المفرد خبراً والجملة بعد صفة لكنه بعيد وما قيل على الاول من ان جعل التنوين للتنويع مع الباسه مخالف للظاهر وكونه كالوصف معنى تعسف خروج عن الانصاف وزعم ابن عطية ان النكرة تخصصت بقوله تعالى يومئذ وتعقب بأنه لاتتخصص بالاخبار بظروف الزمان وقدر عصام الدين جواب القسم ليأتين وقال نحن نقدره كذلك ونجعل يوم ترجف فاعلاله مرفوع المحل ونجعل تتبعها الرادفة صفة للراجفة بجعلها في حكم النكرة لكون التعريف للعهد الذهني نحو أمر على اللئيم يسبني وفيه مافيه وفيه مافيه وقيل ان الجواب تتبعها الرادفة ويوم منصوب به ولام القسم محذوفة أي ليوم كذا تتبعها الرادفة ولم تدخل نون التأكيد لانه قد فصل بين اللام المقدرة والفعل وليس بذاك وقال محمد بن علي الترمذي ان جواب القسم ان في ذلك لعبرة لمن يخشى وهو كما ترى ومثله ماقيل هو هل أتاك حديث موسى لانه في تقدير قد أتاك وقال أبو حاتم على التقديم والتأخير كانه قيل فاذاهم بالساهرة والنازعات وخطأه ابن الانباري بان الفاء لا يفتتح بها الكلام وبالجملة الوجيه هو ما قدمنا وقوله تعالى ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ حكاية لمايقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به أثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمي وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والابصار أي يقولون اذا قيل لهم انكم تبعثون منكرين له متعجبين منه أئنا لمردودون بعد موتنا في الحافرة أي في الحالة الاولى يعنون الحياة كما قال ابن عباس وغيره وقيل انه تعالى شانه لما أقسم على البعث وبين ذلهم وخوفهم ذكر هنا اقرارهم بالبعث وردهم الى الحياة بعد الموت فالاستفهام لاستغراب ما شاهدوه بعد الانكار والجملة مستانفة استئنافا بيانيا لما يقولون اذ ذاك والظاهر ما تقدم وان القول في الدنيا وأياما كان فهو من قولهم رجع فلان في حافرته أي طريقته التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيه والقياس المحفورة فهي اما بمعنى ذات حفر أو الاسناد مجازي أو الكلام على الاستعارة المكنية بتشبيه القابل بالفاعل وجعل الحافرية تخييلا وذلك نظير ما ذكروا في عيشة راضية ويقال لكل من كان في أمر فخرج منه ثم عاد اليه رجع الى حافرته وعليه قوله

أحافرة على صلع وشيب * معاذ الله من سفه وعار

يريد أأرجع الى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والتصابي بعد أن شبت معاذ الله من ذاك سفها وعارا ومنه المثل النقد عند الحافرة فقد قيل الحافرة فيه بمعنى الحالة الاولى وهي الصفقة أي النقد حال العقد لكن نقل الميداني عن ثعلب ان معناه النقد عند السبق وذلك ان الفرس اذا سبق أخذ الرهن والحافرة الارض التي حفرها السابق بقوائمه على أحد التأويلات وقيل الحافرة جمع الحافر بمعنى القدم أي يقولون أئنا لمردودون أحياء نمشي على أقدامنا ونطأ بها الارض ولا يخفى ان اداء اللفظ هذا المعنى غير ظاهر وعن مجاهد الحافرة القبور المحفورة أي لمردودون أحياء في قبورنا وعن زيد بن أسلم هي النار وهو كاترى وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة في الحفرة بفتح الحاء وكسر الفاء على انه صفة مشبهة من حفر اللازم كعلم مطاوع حفر بالبناء للمجهول يقال حفرت أسنانه فحفرت حفراً بفتحتين اذا اثر الاكال في أسناخها وتغيرت ويرجع ذلك الى معنى المحفورة وقيل هي الارض المنتنة المتغيرة باجساد موتاها وقوله تعالى ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ تأكيد لانكار البعث بذكر حالة منافية له والعامل في اذا مضمر يدل عليه مردودون أي أئذا كنا عظاما بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة وقرأ

نافع وابن عامر اذا كنا باسقاط همزة الاستفهام فقيل يكون خبر استهزاء بعد الاستفهام الانكاري واستظهر انه متعلق بمردودون وقرأ عمر وأبي وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والاخوان وأبو بكر ناخرة بالالف وهو كنخرة من نخر العظم أي بلي وصار أجوف تمر به الريح فيسمع له نخير أي صوت وقراءة الاكثرين أبلغ فقد صرحوا بان فعلا أبلغ من فاعل وان كانت حروفه أكثر وقولهم زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى أغلبي أو اذا اتحد النوع لا اذا اختلف كأن كان فاعل اسم فاعل وفعل صفة مشبهة نعم تلك القراءة أوفق بروس الآي واختيارها لذلك لا يفيد اتحادها مع الاخرى في المبالغة كما وهم والى الابلغية ذهب المعظم وفسرت النخرة عليه بالاشد بلى وقال عمرو بن العلاء النخرة التي قد بليت والناخرة التي لم تنخر بعد ونقل اتحاد المعنى عن الفراء وأبي عبيدة وأبي حاتم وآخرين وقوله تعالى ﴿ قالوا ﴾ حكاية لكفر آخر لهم متفرع على كفرهم السابق ولعل توسيط قالوا بينهما للايذان بان صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم في كافة أوقاتهم حسبما ينبيء عنه حكايته بصيغة المضارع أي قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين الى ما أنكروه من الرد في الحافرة مشعرين بغاية بعده عن الوقوع ﴿ تلك إذا كرة خاسرة ﴾ أي ذات خسر أو خاسر اصحابها أي اذا صحت تلك الرجعة فنحن خاسرون لتكذيبنا بها وأبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته في صورة ما يغلب على الظن وقوعه لمزيد الاستهزاء وقال الحسن خاسرة كاذبة أي بكائنة فكان المعنى تلك اذا كنا عظاما نخرة كرة ليست بكائنة وقوله تعالى ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ تعليل لمقدر يقتضيه انكارهم ذلك فانه لما كان مدارهم استصعابهم الكرة رد عليهم ذلك فقيل لا تحسبوا تلك الكرة صعبة فانما هي صيحة واحدة أي حاصلة بصيحة واحدة وهي النفخة الثانية عبر عنها بها تنبيها على كمال انصالها بها كأنها عينها وقيل هي راجع الى الرادفة وقوله تعالى ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ حينئذ بيان لترتب الكرة على الزجرة مفاجأة أي فاذا هم أحياء على وجه الارض بعد ما كانوا أمواتا في بطنها وعلى الاول بيان لحضورهم الموقف عقيب الكرة التي عبر عنها بالزجرة والساهرة قيل وجه الارض والفلاة وأنشدوا قول أمية بن أبي الصلت

وفيها لحم ساهرة وبحر * وما فاهوا به أبدا مقيم

وفي الكشاف الارض البيضاء أي التي لا نبات فيها المستوية سميت بذلك لان السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة قال الاشعث بن قيس

وساهرة يضحى السراب مجللا ☆ لاقطارها قد جبتها ملتثما

أولان سالكها لا ينام خوف الهلكة وفي الاول مجاز على المجاز وعلى الثاني السهر على حقيقته والتجوز في الاسناد وحكى الراغب فيها قولين الاول انها وجه الارض والثاني انها أرض القيامة ثم قال وحقيقتها التي يكثر الوطء بها فكأنها سهرت من ذلك اشارة الى نحو ما قال الشاعر * تحرك يقظان التراب ونائمه * وروى الضحاك عن ابن عباس أن الساهرة أرض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط يخلقها عز وجل حينئذ وعنه أيضا أنها أرض مكة وقيل هي الارض السابعة يأتي الله تعالى بها فيحاسب الخلائق عليها وذلك حين تبدل الارض غير الارض وقال وهب بن منبه جبل بالشام يمده الله تعالى يوم القيامة حشر الناس وقال أبو العالية وسفيان ارض قريبة من بيت المقدس وقيل الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم وقال قتادة هي جهنم لانه لا نوم لمن فيها وقوله تعالى ﴿ هل أتيك حديث موسى ﴾ كلام مستأنف ورد لتسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من تكذيب قومه وتهديدهم عليه بأن يصيبهم مثل ما اصاب من كان أقوى منهم وأعظم ومعنى هل اتاك ان اعتبر ان هذا اول ما اتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام

ترغيب له صلى الله تعالى عليه وسلم في استماع حديثه كانه قيل هل أتاك حديثه أنا اخبرك به وان اعتبر اتيانه قبل هذا وهو المتبادر من الايجاز في الاقتصاص أليس قد أتاك حديثه وليس هل بمعنى قد على شئ من الوجهين وقوله تعالى ﴿إِذْ نَادَيْهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ظرف للحديث لا للاتيان لاختلاف وقتيهما وجوز كونه مفعول اذكر مقدرا وتقدم الكلام فى الواد المقدس واختلاف القراء في طوى ﴿إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ على ارادة القول والتقدير وقال له أو قائلا له اذهب الخ وقيل هو تفسير للنداء أى ناداه اذهب وقيل هو على حذف ان المفسرة يدل عليه قراءة عبد الله أن اذهب لان في النداء معنى القول وجوز أن يكون بتقدير ان المصدرية قبلها حرف جر ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ تعليل للامر أو لوجوب الامتثال به ﴿فَقُلْ﴾ بعد ماأتيته ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ أى هل لك ميل الى أن تتزكى فلك فى موضع الخبر لمبتدا محذوف والى أن تزكى متعلق بذلك المبتدا المحذوف ونحوه قول الشاعر

فهل لكم فيها الى فانني ✡ بصير بما أعيا النطاسى حذيما

قد يقال هل لك في كذا فبؤتى بفى ويقدر المبتدا رغبة ونحوه مما يتعدى بها ومنهم من قدره هنا رغبة لانها تعدى بها أيضا وقال أبو البقاء لما كان المعنى أدعوك جيء بالى ولعله جعل الظرف متعلقا بمعنى الكلام أو بمقدر يدل عليه وتزكى بحذف احدى التاءين أى تتطهر من دنس الكفر والطغيان وقرأ الحرميان وأبو عمرو بخلاف تزكى بتشديد الزاى وأصله كما أشرنا اليه تتزكى فأدغمت التاء الثانية فى الزاى ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ اى ارشدك الى معرفته عز وجل فتعرفه ﴿فَتَخْشَى﴾ اذا الخشية لا تكون الا بعد معرفته قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وجعل الخشية غاية للهداية لانها ملاك الامر من خشى الله تعالى اتى منه كل خير ومن امن اجترأ على كل شر ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الترمذى عن أبى هريرة من خاف ادلج ومن ادلج بلغ المنزل وفى الاستفهام مالا يخفى من التلطف في الدعوة والاستنزال عن العتو وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى وتقديم التزكية على الهداية لانها تخلية والفاء في قوله تعالى ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلا على تفصيلها في موضع آخر كانه قيل فذهب وكان كيت وكيت فاراه واقتصر الزمخشرى في الحواشى على تقدير جملة فقال ان هذا معطوف على محذوف والتقدير فذهب فأراه لان قوله تعالى اذهب يدل عليه فهو على نحو اضرب بعصاك الحجر فانبجست والاراءة اما بمعنى التبصير أو بمعنى التعريف فان اللعين حين أبصرها عرفها وادعاء سحريتها انما كان اظهاراً للتجلد ونسبتها اليه عليه الصلاة والسلام بالنظر الى الظاهر كما ان نسبتها الى نون العظمة في قوله تعالى ولقد أريناه آياتنا بالنظر الى الحقيقة والمراد بالآية الكبرى على ماروى عن ابن عباس قلب العصا حية فانها كانت المقدمة والاصل والاخرى كالتبع لها وعلى ماروى عن مجاهد ذلك واليد البيضاء فانهما باعتبار الدلالة كالآية الواحدة وقد عبر عنهما بصيغة الجمع في قوله تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتى باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون وجوز أن يراد بها مجموع معجزاته عليه السلام والوحدة باعتبار ما ذكر والفاء لتعقيب أولها أو مجموعها باعتبار أولها وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله من الرسل عليهم السلام أو هو للزيادة المطلقة ولا يخفى بعده ويزيده بعدا ترتيب حشر السحرة بعد فانه لم يكن الا على اراءة تينك الآيتين واذباره عن العمل بمقتضاها وأما ما عداها من التسع فانما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة وزعم غلاة

الشيعة أن الآية الكبرى على كرم الله تعالى وجهه أراه اياه متطورة روحه الكريمة بأعظم طور وهو هذيان وراء طور العقل وطور النقل ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ بموسى عليه السلام وسمى معجزته سحرا ﴿ وَعَصَى ﴾ الله تعالى بالتمرد بعد ما علم صحة الامر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه حيث اجترأ على انكار وجود رب العالمين رأسا وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وتراءى العظمة التي يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لا بارسال بني اسرائيل من الاسر والقسر فقط وفي جعل متعلق التكذيب موسى عليه السلام ومتعلق العصيان الله عز وجل ماليس في جعلهما موسى كما قيل فكذب موسى وعصاه من الذم كما لا يخفى ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ تولى عن الطاعة ﴿ يَسْعَى ﴾ أي ساعيا مجتهدا في ابطال أمره عليه السلام ومعارضة الآية وثم لان ابطال ذلك ونقضه يقتضي زمانا طويلا وجوز أن يكون الادبار على حقيقته أي ثم انصرف عن المجلس ساعيا في ابطال ذلك وقيل أدبر يسعى هاربا من الثعبان فانه روى أنه لما ألقى العصا انقلبت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا فوضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر فهرب فرعون وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون الفا من قومه وفي بعض الآثار أنها انقلبت حية وارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول يا موسى مرني بما شئت ويقول فرعون أنشدك بالذي ارسلك الا أخذته فأخذه فعاد عصى وأنت تعلم أن هذا ان كان بعد حشر السحرة للمعارضة كما هو المشهور فلا تظهر صحة ارادته هنا اذا أريد بالحشر بعد حشرهم وان كان بعد التكذيب والعصيان وقبل الحشر فلا يظهر تراخيه عن الأولين نعم قيل ان ثم عليه للدلالة على استبعاد ادباره مرعوبا مسرعا مع زعمه الالهية وقيل أريد بقوله سبحانه ثم أدبر ثم أقبل من قولهم أقبل يفعل أي أنشأ لكن جعل الادبار موضع الاقبال تمليحا وتنبيها على أنه كان عليه دمارا وادبارا ﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي فجمع السحرة لقوله تعالى فارسل فرعون في المدائن حاشرين وقوله سبحانه فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى أي بما يكاد به من السحرة وآلاتهم وقيل جمع جنوده وجوز ان يراد جمع أهل مملكته ﴿ فَنَادَى ﴾ في المجمع نفسه أو بواسطة المنادي وأيد الاول بقوله تعالى ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ وعلى الثاني فيه تقدير أي فقال يقول فرعون أنا ربكم الخ مع ما في الثاني من التجوز وفي بعض الآثار انه قام فيهم خطيبا فقال تلك العظيمة وأراد اللعين تفضيل نفسه على كل من يلي أمورهم ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ﴾ النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وهو التعذيب الذي ينكل من رآه أو سمعه ويمنعه من تعاطي مايفضي اليه وهو نصب على أنه مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله كأنه قيل نكل الله تعالى به نكال الآخرة والاولى وهو الاحراق في الآخرة والاغراق والاذلال في الدنيا وجوز أن يكون نصبا على انه مفعول مطلق لاخذ أي أخذه الله تعالى أخذ نكال الآخرة الخ وأن يكون مفعولا له أي أخذه لاجل نكال الخ وأن يكون نصبا بنزع الخافض أي أخذه بنكال الآخرة والاولى واضافته الى الدارين باعتبار وقوع نفس الاخذ فيهما لا باعتبار ان مافيه من معنى المنع يكون فيهما فان ذلك لا يتصور في الآخرة بل في الدنيا فان العقوبة الاخروية تنكل من سمعها وتمنعه من تعاطي مايؤدي اليها فيها وأن يكون في تأويل المشتق حالا واضافته على معنى في أي منكلا لمن رآه أو سمع به في الآخرة والاولى وجوز أن تكون الاضافة عليه لامية وحمل الآخرة والاولى على الدارين هو الظاهر وروى عن الحسن وابن زيد وغيرهما وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك والشعبي ان الآخرة قوله أنا ربكم الاعلى والاولى قوله ما علمت لكم من اله غيري وقيل بالعكس فهما كلمتان

وكان بينهما على ما قالوا أربعون سنة وقال أبو رزين الاولى حالة كفره وعصيانه والآخرة قولته أنا ربكم الاعلى وعن مجاهد أنهما عبارتان عن أول معاصيه وآخرها أى نكل بالجميع والاضافة على جميع ذلك من اضافة المسبب الى السبب ومآل من يقول بقبول ايمان فرعون الى هذه الاقوال وجعل ذلك النكال الاغراق في الدنيا وقد قدمنا الكلام في هذا المقام ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل وما فعل به ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أى لمن شانه أن يخشى وهو من من شأنه المعرفة وهذا اما لان من كان في خشية لا يحتاج للاعتبار أو ليشمل من يخشى بالفعل ومن كان من شانه ذلك على ما قيل وقوله تعالى ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ خطاب للمخاطبين في جواب القسم أعنى لتبعثن من أهل مكة المنكرين للبعث بناء على صعوبته في زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة الى قدرة الله تعالى بقوله سبحانه فانما هي زجرة واحدة ونصب خلقا على التمييز وهو محول عن المبتدا أى اخلقكم بعد موتكم أشد أى أشق وأصعب في تقديركم ﴿ أَمِ السَّمَاءُ ﴾ أى أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التى تحار العقول عن ملاحظة أدناها وقوله تعالى ﴿ بَنَاهَا ﴾ الخ بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله تعالى ام السماء وفى عدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف من الافعال من التنبيه على تعينه وتفخيم شانه عز وجل مالا يخفى وقوله سبحانه ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ بيان للبناء أى جعل مقدار ارتفاعها من الارض وذهابها الى سمت العلو مديدا رفيعا وجوز أن يفسر السمك بالثخن فالمعنى جعل ثخنها مرتفعا في جهة العلو ويقال للثخن سمك لما فيه من ارتفاع السطح الاعلى عن السطح الاسفل واذا لوحظ هذا الامتداد من العلو للسفل قيل له عمق ونظير ذلك الدرج والدرك وقد جاء فى الاخبار الصحيحة ان ارتفاع السماء الدنيا عن الارض خمسمائة عام وارتفاع كل سماء وثخن كل كذلك والظاهر تقدير ذلك بالسير المتعارف وان المراد بالعدد المذكور التحديد دون التكثير ونحن مع الظاهر الا ان يمنع عنه مانع ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أى جعلها سواء فيما اقتضته الحكمة فلم يخل عز وجل قطعة منها عما تقتضيه الحكمة فيها ومن ذلك تزيينها بالكواكب وقيل تسويتها جعلها ملساء ليس فى سطحها انخفاض وارتفاع وقيل جعلها بسيطة متشابهة الاجزاء والشكل فليس بعضها سطحا بعضها زاوية وبعضها خطا وهو قول بكريتها الحقيقية واليه ذهب كثير وقالوا وحكاه الامام لما ثبت انها محدثة مفتقرة الى فاعل مختار فاى ضرر في الدين ينشأ من كونها كرية وقيل تسويتها تتميمها بما يتم به كمالها من الكواكب والمتممات والتداوير وغيرها مما بين في علم الهيئة من قولهم سوى أمره أى أصلحه أو من قولهم استوت الفاكهة اذا نضجت وأنت تعلم أن هذا مع بنائه على اتحاد السموات والافلاك غير معروف في الصدر الاول من المسلمين لعدم وروده عن صاحب المعراج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعدم ظهور الدليل عليه والادلة التى يذكرها أهل الهيئة لتلك الامور لا يخفى حالها ولذا لم يقل بما تقتضيه مخالفوهم من أهل الهيئة اليوم والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أى جعله مظلما يقال غطش الليل واغطشه الله تعالى كما يقال ظلم وأظلمه ويقال ايضا أغطش الليل كما يقال أظلم وجاء ليلة غطشاء وليل أغطش وغطش قال الاعشى

عقرت لهم ناقتى موهنا * فليلهم مدلهم غطش

وفي البحر عن كتاب اللغات في القرآن أغطش اظلم بلغة أنمار وأشعر ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى أبرز نهارها والضحى في الاصل على ما يفهم من كلام الراغب انبساط الشمس وامتداد النهار ثم سمى به الوقت

المعروف وشاع في ذلك وتجوز به عن النهار بقرينة المقابلة وقيل الكلام على حذف مضاف أى ضحى شمسها أى ضوء شمسها وكنى بذلك عن النهار والاول أقرب وعبر عن النهار بالضحى لانه أشرف أوقاته وأطيبها وفيه من انتعاش الارواح ماليس في سائرها فكان أوفق لمقام تذكير الحجة على منكرى البعث واعادة الارواح الى ابدانها وقيل إنه لذلك كان أحق بالذكر في مقام الامتنان واضافة الليل والضحى الى السماء لانهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها وهي سماوية أووهما انما يحصلان بسبب حركتها على القول بحركتها لاتحادهامع الفلك أووهما انما يحصلان بسبب حركة الشمس في فلكها فيها على القول بأن السماء والفلك متغايران والمتحرك انما هو الكوكب في الفلك كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى كل في فلك يسبحون وان الفلك ليس الا مجرى الكوكب في السماء وقيل أضيفا اليها لانهما أول ما يظهران منها اذ أول الليل باقبال الظلام من جهة المشرق وأول النهار بطلوع الفجر واقبال الضياء منه وفي الكشاف اضيف الليل والشمس الى السماء لان الليل ظلها والشمس هي السراج المثقب في جوها واعترض بان الليل ظل الارض وأجيب بانه اعتبار بمرأى الناظر كذلك كما ان زينة السماء الدنيا أيضا اعتبار بمرأى الناظر وقيل اضافتهما اليها باعتبار انهما انما يحدثان تحتها وشملا بهذا الاعتبار مالم يكد يخطر في اذهان العرب من ليل ونهار طول كل منهما ستة أشهر وهما ليل ونهار عرض تسعين حيث الدور رحوى وتعقب بانهم قالوا ان ظل الارض لمخروطي ينتهي الى فلك الزهرة وهي في السماء الثالثة فالحصر غير تام وفيه نظر فتأمل وبالجملة الاضافة لادنى ملابسة ﴿والأرض بعد ذلك﴾ الظاهر انه اشارة الى ماتقدم من خلق السماء واغطاش الليل واخراج النهار دون خلق السماء فقط وانتصاب الارض بمضمر قيل على شريطة التفسير وقيل تقديره تذكر أوتدبر أواذكر وستعلم ما في ذلك ان شاء الله تعالى ومعنى قوله تعالى ﴿دحيها﴾ بسطها ومدها لسكنى أهلها وتقلبهم في أقطارها من الدحو أو الدحى بمعنى البسط وعليه قول أمية بن أبى الصلت

وبث الخلق فيها اذ دحاها * فهم قطانها حتى التنادى

وقيل دحاها سواها وأنشدوا قول زيد بن عمرو بن نفيل

واسلمت وجهى لمن أسلمت * له الارض تحمل صخراً ثقالا

دحاها فلما استوت شدها * بايد وارسى عليها الجبالا

والاكثرون على الاول وأنشد الامام بيت زيد فيه والظاهر ان دحوها بعد خلقها وقيل مع خلقها فالمراد خلقها مدحوة وروى الاول عن ابن عباس ودفع به توهم تعارض بين آيتين أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أن رجلا قال له آيتان في كتاب الله تعالى تخالف احداهما الاخرى فقال انما أتيت من قبل رأيك اقرأ قال قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين حتى بلغ ثم استوى الى السماء وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها قال خلق الله تعالى الارض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ثم دحا الارض بعد ما خلق السماء وانما قوله سبحانه دحاها بسطها وتعقبه الامام بان الجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوى ويستحيل أن يكون هذا الجسم العظيم مخلوقا ولا يكون ظاهره مدحوا مبسوطا وأجيب أنه لعل مراد القائل بخلقها أولا ثم دحوها ثانيا خلق مادتها أولا ثم تركيبها واظهارها على هذه الصورة والشكل مدحوة مبسوطة وهذا كما قيل في قوله تعالى ثم استوى الى السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات ان السماء خلقت مادتها أولا ثم سويت وأظهرت على صورتها اليوم وعن الحسن ما يدل على أنها كانت يوم خلقت قبل الدحو كهيئة الفهر ويشعر بانها لم تكن على عظمها اليوم وتعقبه بعضهم بشيء آخر وهو انه يأبى ذلك قوله تعالى خلق لكم ما في الارض

جميعا ثم استوى الى السماء الآية فانه يفيد ان خلق ما في الارض قبل خلق السموات ومن المعلوم أن خلق ما فيها انما هو بعد الدحو فكيف يكون الدحو بعد خلق السموات وأجيب بان خلق في الآية بمعنى قدر أو أراد الخلق ولا يمكن أن يراد به فيها الايجاد بالفعل ضرورة ان جميع المنافع الارضية يتجدد ايجادها أولا فاولا سلمنا أن المراد الايجاد بالفعل لكن يجوز ان يكون المراد خلق مادة ذلك بالفعل ومن الناس من حمل ثم على التراخي الرتبي لان خلق السماء اعجب من خلق الارض وقال عصام الدين ان بعد ذلك هنا كما في قوله تعالى عتل بعد ذلك زنيم يعني فعل بالارض ما فعل بعد ما سمعت في السماء والمراد التأخير في الاخبار لخلق الارض ودحوها واخراج مائها ومرعاها وارساء الجبال عليها عنده قبل خلق السماء كما يقتضيه ظاهر آية البقرة وظاهر آية الدخان وأيد حمل البعدية على ما ذكر بان حملها على ظاهرها مع حمل الاشارة على الاشارة الى مجموع ما تقدم مما سمعت يلزم عليه ان اغطاش الليل وابراز النهار كانا قبل خلق الارض ودحوها وذلك مما لا يتسنى على تقدير انها غير مخلوقة اصلا ومما يبعد على تقدير انها مخلوقة غير عظيمة وأيضا قيل لو لم تحمل البعدية ما ذكر وقيل بنحو ما قال ابن عباس من تاخر الدحو عن خلق السماء مع تقدم خلق الارض من غير دحو على خلقها لم تنحسم مادة الاشكال اذ آية الدخان ظاهرة في ان جعل الرواسي في الارض قبل خلق السماء وتسويتها وهذه الآية الى آخرها ظاهرة في ان جعل الرواسي بعد وبالجملة انه قد اختلف اهل التفسير في ان خلق السماء مقدم على خلق الارض أو مؤخر فقال ابن الطاشكبرى نقل الواحدي عن مقاتل ان خلق السماء مقدم على خلق الارض واختاره جمع لكنهم قالوا ان خلق ما فيها مؤخر وأجابوا عما هنا وآية البقرة بان الخلق فيها بمعنى التقدير أو بمعنى الايجاد وتقدير الارادة وان البعدية ههنا لايجاد الارض وجميع ما فيها وعما هنا وآية الدخان بنحو ذلك فقدروا الارادة في قوله تعالى خلق الارض في يومين وكذا في قوله سبحانه وجعل فيها رواسي وقالوا يؤيد ما ذكر قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فان الظاهر ان المراد أئتيا في الوجود ولو كانت الارض موجودة سابقة لما صح هذا فكأنه قال سبحانه أئتكم لتكفرون بالذي أراد ايجاد الارض وما فيها من الرواسي والاقوات في أربعة ايام ثم قصد الى السماء فتعلقت ارادته بايجاد السماء والارض فاطاعا لامر التكوين فاوجد سبع سموات في يومين وأوجد الارض وما فيها في أربعة أيام ونكتة تقديم خلق الارض وما فيها في الظاهر في سورتي البقرة والدخان على خلق السموات والعكس ههنا ان المقام في الاولين مقام الامتنان وتعداد النعم على أهل الكفر والايمان فمقتضاه تقديم ما هو نعمة بالنظر الى المخاطبين من الفريقين فكأنه قال سبحانه هو الذي دبر أمركم قبل السماء ثم خلق السماء والمقام هنا مقام بيان كمال القدرة فمقتضاه تقديم ما هو أدل انتهى وفي الكشف اطبق أهل التفسير أنه تم خلق الارض وما فيها في أربعة أيام ثم خلق السماء في يومين الا ما نقل الواحدي في البسيط عن مقاتل ان خلق السماء مقدم على ايجاد الارض فضلا عن دحوها والكلام مع من فرق بين الايجاد والدحو وما قيل ان دحو الارض متأخر عن خلق السماء لا عن تسويتها يرد عليه بعد ذلك فانه اشارة الى السابق وهو رفع السمك والتسوية والجواب بتراخي الرتبة لا يتم لما نقل من أطباق المفسرين فالوجه ان يجعل الارض منصوبا بمضمر نحو تذكر وتدبر واذكر الارض بعد ذلك وان جعل مضمرا على شريطة التفسير جعل بعد ذلك اشارة الى المذكور سابقا من ذكر خلق السماء لا خلق السماء نفسه ليدل على انه متأخر في الذكر عن خلق السماء تنبيها على انه قاصر في الدلالة عن الاول لكنه تتميم كما تقول جملا ثم تقول بعد ذلك كيت وكيت وهذا كثير في استعمال العرب والعجم وكان بعد ذلك بهذا

المعنى عكسه اذا استعمل لتراخي الرتبة وقد تستعمل ثم بهذا المعنى وكذا الفاء وهذا لا ينافي قول الحسن انه تعالى خلق الارض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما الآية فانه يدل على ان كون السماء دخانا سابق على دحو الارض وتسويتها وهو كذلك بل ظاهر قوله تعالى ثم استوى الى السماء وهي دخان يدل على ذلك وايجاد الجوهرة النورية والنظر اليها بعين الجلال لمبطن بالرحمة والجمال وذوبها وامتياز لطيفها عن كثيفها وصعود المادة الدخانية اللطيفة وبقاء الكثيف هذا كله سابق على الايام الستة وثبت في الخبر الصحيح ولا ينافي الآيات وأما ما نقله الواحدي عن مقاتل واختاره الامام فلا اشكال فيه ويتعين ثم في سورتي البقرة والسجدة على تراخي الرتبة وهو أوفق لمشهور قواعد الحكماء لكن لا يوافق ما روي انه تعالى خلق جرم الارض يوم الاحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة وفي آخر يوم الجمعة ثم خلق آدم عليه السلام انتهى والذي اميل اليه ان تسوية السماء بما فيها سابقة على تسوية الأرض بما فيها لظهور أمر العلية في الاجرام العلوية وأمر المعلولية في الاجرام السفلية ويعلم تأويل ما ينافي ذلك مما سمعت وأما الخبر الاخير ففي صحته مقال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وقد مر شيء مما يتعلق بهذا المقام وانما أعدنا الكلام فيه تذكيراً لذوي الافهام فتأمل والله تعالى الموفق لتحصيل المرام وقوله تعالى ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا ﴾ بان فجر منها عيونا وأجرى أنهارا ﴿ وَمَرْعَيٰهَا ﴾ يقع على الرعي بالكسر وهو الكلأ والرعي بالفتح وهو المصدر وكذا على الموضع والزمان وزعم بعضهم انه في الاصل للموضع ولعله أراد أنه أشهر معانيه والمناسب للمقام المعنى الاول لكنه قيل انه خاص بما يأكله الحيوان غير الانسان وتجوز به عن مطلق المأكول للانسان وغيره فهو مجاز مرسل من قبيل المرسن وقال الطيبي يجوز أن يكون استعارة مصرحة لان الكلام مع منكري الحشر بشهادة أأنتم أشد خلقا كانه قيل أيها المعاندون الملزوزون في قرن البهائم في التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة بيان وتفسير لدحاها وتكملة له فان السكنى لا تتأتى بمجرد البسط والتمهيد بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب أو حال من فاعله باضمار قد أو بدونه وكلا الوجهين مقتض لتجريد الجملة عن العاطف وقوله تعالى ﴿ وَالْجِبَالَ ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله سبحانه ﴿ أَرْسَيٰهَا ﴾ أي أثبتها وفيه تنبيه على أن الرسو المنسوب اليها في مواضع كثيرة من التنزيل ليس من مقتضيات ذاتها وللفلاسفة المحدثين كلام في أمر الارض وكيفية بدئها لا مستند لهم فيه الا آثار أرضية يزعمون دلالتها على ذلك هي في أسفل الارض عن ساحة القبول وقرأ عيسى برفع الارض والحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال برفع الارض والجبال وهو على ما قيل على الابتداء وتعقبه الزجاج بان ذلك مرجوح لان العطف على فعلية وأورد عليه أن قوله تعالى بناها بيان لكيفية خلق السماء وقوله سبحانه رفع سمكها بيان للبناء وليس لدحو الارض وما بعده دخل في شيء من ذلك فكيف يعطف عليه ما هو معطوف على المجموع عطف القصة على القصة والمعتبر فيه تناسب القصتين وهو حاصل هنا فلا ضير في الاختلاف بل فيه نوع تنبيه على ذلك وقيل ان جملة قوله تعالى والارض الخ على القراءتين ليست معطوفة على قوله سبحانه رفع سمكها لانها لا تصلح بيانا لبناء السماء فلا بد من تقدير معطوف عليه وحينئذ يقدر جملة فعلية على قراءة الجمهور أي فعل ما فعل في السماء وجملة اسمية على قراءة الآخرين أي السماء وما يتعلق بها مخلوق له تعالى وجوز عطف الارض بالرفع على السماء من حيث المعنى كانه قيل السماء أشد خلقا والارض بعد ذلك أي والارض

بعد ماذكر من السماء أشد خلقا فيكون وزان قوله تعالى دحاها الخ وزان قوله تعالى بناها الخ وحينئذ فلا يكون بعد ذلك مشعرا بتأخر دحو الارض عن بناء السماء وقوله تعالى ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ قيل مفعول له أى فعل ذلك تمتيعا لكم ولانعامكم لان فائدة ماذكر من الدحو واخراج الماء والمرعى واصلة اليهم ولانعامهم فان المرعى كما سمعت مجاز عما يأكله الانسان وغيره وقيل مصدر مؤكد لفعله المضمر أى متعكم بذلك متاعا أو مصدر من غير لفظه فان قوله تعالى أخرج منها ماءها ومرعاها فى معنى متع بذلك وأورد على الاول ان الخطاب لمنكرى البعث والمقصود هو تمتيع المؤمنين فلا يلائم جعل تمتيع الآخرين كالغرض فالاولى ما بعده وأجيب بأن خطاب المشافهة وان كان خاصا بالحاضرين الا ان حكمه عام كما تقرر فى الاصول فالمآل الى تمتيع الجنس وأيضا النصب على المصدرية بفعله المقدر لا يدفع المحذور لكونه استئنافا لبيان المقصود ولا يخفى ان كون المقصود هو تمتيع المؤمنين محل بحث وقوله سبحانه ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ الخ شروع فى بيان أحوال معادهم أثر بيان أحوال معاشهم بقوله عز وجل متاعا الخ والفاء الدالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها على ما قيل كما ينبىء عنه لفظ المتاع والطامة أعظم الدواهي لانه من طم بمعنى علا كما ورد فى المثل جرى الوادى فطم على القرى وجاء السيل فطم الركى وعلوها على الدواهي غلبتها عليها فيرجع لما ذكر قيل فوصفها بالكبرى للتأكيد ولو فسر كونها طامة بكونها غالبة للخلائق لايقدرون على دفعها لكان الوصف مخصصا وقيل كونها طامة باعتبار انها تغلب وتفوق ماعرفوه من دواهي الدنيا وكونها كبرى باعتبار أنها أعظم من جميع الدواهي مطلقا وقيل غير ذلك وأنت تعلم ان الطامة الكبرى صارت كالعلم للقيامة وروى كونها اسما من أسمائها هنا عن ابن عباس وعنه أيضا وعن الحسن انها النفخة الثانية وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن القاسم بن الوليد الهمدانى انها الساعة التى يساق فيها أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار وأخرج عن عمرو بن قيس الكندى انها ساعة يساق أهل النار الى النار وفى معناه قول مجاهد هى اذا دفعوا الى مالك خازن جهنم ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ بدل كل أو بعض من اذا جاءت على ماقيل وقيل بدل من الطامة الكبرى فيكون مرفوع المحل وفتح لاضافته الى الفعل على رأى الكوفيين وتكون الطامة حقيقة التذكر والبروز لان حسن العمل يغلب كل لذة وسواه كل مشقة وكذا بروز الجحيم مع الابتلاء به يغلب كل مشقة ومع النجاة عنه كل لذة ولايخفى تعسفه وقيل ظرف لجاءت وعليه الطبرسى واستظهر انه منصوب باعنى تفسيرا للطامة الكبرى وماموصولة وسعى بمعنى عمل والعائد مقدر أى له والمراد يوم يتذكر كل أحد ماعمله من خير أو شر بأن يشاهده مدونا فى صحيفته وقد كان نسيه من فرط الغفلة أو طول الامد أوشدة مالقى أو كثرته التى تعجز الحافظ عن الضبط لقوله تعالى احصاه الله ونسوه ويمكن ان يكون تذكره بوجه آخر وجوز ان تكون ما مصدرية أى يتذكر فيه سعيه ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ عطف على جاءت وقيل على يتذكر وقيل حال من الانسان بتقدير قد أو بدونه والموصول بعد مغن عن العائد وكلا القولين على ما فى الارشاد على تقدير الجواب يتذكر الانسان ونحوه وسيأتى ان شاء الله تعالى فلا تغفل ومعنى برزت أظهرت اظهارا بينا لا يخفى على أحد ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ كائنا من كان يروى أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذى بصر وخص بعض من بالكافر وليس بشىء وقرأت عائشة وزيد بن على وعكرمة ومالك بن دينار وبرزت مبنيا للفاعل مخففا لمن ترى بالتاء الفوقية على أن فيه ضمير جهنم كما فى قوله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد واسناد الرؤية لها مجازا وهو حقيقة على أن يخلق الله تعالى ذلك فيها ويجوز أن

يكون خطابا لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم أو لكل راء كقوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون أى لمن تراه من الكفار وقرأ أبو نهيك وأبو السمال وهرون عن ابى عمرو وبرزت مبنيا للمفعول مخففا وقوله تعالى ﴿ فأما من طغى ﴾ الخ جواب اذا على أنها شرطية لا ظرفية كما جوز على طريقة قوله تعالى فاما يأتينكم منى هدى الآية وقولك اذا جاءك بنو تميم فاما العاصى فاهنه وأما الطائع فاكرمه واختاره أبو حيان وقيل جوابها محذوف كأنه قيل فاذا جاءت وقع مالا يدخل تحت الوصف وقوله سبحانه فاما الخ تفصيل لذلك المحذوف وفي جعله جوابا غموض وهو وجه وجيه بيد أنه لا غموض فى ذلك بعد تحقق استقامة أن يقال فاذا جاءت فان الطاغى الجحيم مأواه وغيره في الجنة مثواه وزيادة أما لم تفد الا زيادة المبالغة وتحقيق الترتب والثبوت على كل تقدير وقيل هو محذوف لدلالة ما قبل والتقدير ظهرت الاعمال ونشرت الصحف أو يتذكر الانسان ما سعى أو لدلالة ما بعد والتقدير انقسم الراؤن قسمين وليس بذاك أى فاما من عتا وتمرد عن الطاعة وجاوز الحد في العصيان حتى كفر ﴿ وآثر ﴾ أى اختار ﴿ الحيوة الدنيا ﴾ الفانية التى هى على جناح الفوات فانهمك فيما متعبه فيها ولم يستعد للحياة الآخرة الابدية بالايمان والطاعة ﴿ فإن الجحيم ﴾ التى ذكر شأنها ﴿ هى المأوى ﴾ أى مأواه على ما راآه الكوفيون من أن ال في مثله عوض عن المضاف اليه الضمير وبها يحصل الربط أو المأوى له على رأى البصريين من عدم كونها عوضا ورابطا وهذا الحذف هنا للعلم بان الطاغى هو صاحب المأوى وحسنه وقوع المأوى فاصلة وهو الذى اختاره الزمخشرى. وهى أما ضمير فصل لامحل له من الاعراب او ضمير جهنم مبتدأ والكلام دال على الحصر أى كأنه قيل فان الجحيم هي مأواه أو المأوى له لا مأوى له سواها ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ اى مقامه بين يدى مالك امره يوم الطامة الكبرى يوم يتذكر الانسان ما سعى على ان الاضافة مثلها في رقود حلب او واما من خاف ربه سبحانه على ان لفظ مقام مقحم والكلام معه كناية عن ذلك واثبات للخوف من الرب عز وجل بطريق برهانى بليغ نظير ما قيل فى قوله تعالى اكرمى مثواه وتمام الكلام في ذلك قد تقدم في سورة الرحمن ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ اى زجرها وكفها عن الهوى المردى وهو الميل الى الشهوات وضبطها بالصبر والتوطين على ايثار الخيرات ولم يعتد بمتاع الدنيا وزهرتها ولم يغتر بزخارفها وزينتها علما بوخامة عاقبتها وعن ابن عباس ومقاتل أنه الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب بين يدى ربه سبحانه فيخاف فيتركها وأصل الهوى مطلق الميل وشاع في الميل الى الشهوة وسمى بذلك على ما قال الراغب لانه يهوى بصاحبه في الدنيا الى كل واهية وفي الآخرة الى الهاوية ولذلك مدح مخالفه قال بعض الحكماء اذا اردت الصواب فانظر هواك فخالفه وقال الفضيل أفضل الاعمال مخالفة الهوى وقال أبو عمران الميرتلى

فخالف هواها واعصها ان من يطع ✡ هوى نفسه تنزع به شر منزع
ومن يطع النفس اللجوجة ترده ✡ وترم به في مصرع أى مصرع

الى غير ذلك وقد قارب ان يكون قبح موافقة الهوى وحسن مخالفته ضروريين الا ان السالم من من الموافقة قليل قل سهل لايسلم من الهوى الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الصديقين فطوبى لمن سلم منه ﴿ فإن الجنة هى المأوى ﴾ له لاغيرها والظاهر أن هذا التفصيل عام في أهل النار وأهل الجنة وعن ابن عباس ان الآيتين نزلتا فى أبى عزيز بن عمير وأخيه مصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه كان الاول طاغيا مؤثر الحياة الدنيا وكان مصعب خائفا مقام ربه ناهيا النفس عن الهوى وقد وقى

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنفسه يوم احد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص اى السهام في جوفه فلما رآه عليه الصلاة والسلام متشحطا في دمه قال عند الله تعالى احتسبك وقال لاصحابه لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وان شراك نعله من ذهب ولما أسر أخوه أبو عزيز ولم يشد وثاقه اكراما له وأخبر بذلك قال ما هو لي بأخ شدوا أسيركم فان أمه أكثر أهل البطحاء حليا ومالا وفي الكشاف أنه قتل أخاه أبا عزيز يوم أحد وعن ابن عباس أيضا انهما نزلتا في أبي جهل وفي مصعب وقيل نزلت الاولى في النضر وابنه الحرث المشهورين بالغلو في الكفر والطغيان ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أي متى ارساؤها أي اقامتها يريدون متى يقيمها الله تعالى ويكونها وإثباتها فالمرسى مصدر ميمي من سار بمعنى ثبت ومنه الجبال الرواسي وحاصل الجملة الاستفهامية السؤال عن زمان ثبوتها ووجودها وجوز أن يكون المرسى بمعنى المنتهى أي متى منتهاها ومستقرها كما ان مرسى السفينة حيث تنتهي اليه وتستقر فيه كذا قيل وتقدير الاستفهام بمتى يقتضي ان المرسى اسم زمان وقوله كما ان الخ ظاهر في انه اسم مكان ولذا قيل الكلام على الاستعارة بجعل اليوم المتباعد فيه كشخص سائر لايدرك ويوصل اليه مالم يستقر في مكان فجعل وقت درا كه مستقرا له فتدبر وقوله تعالى ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ انكار وردلسؤال المشركين عنها أي في أي شيء انت من أن تذكر لهم وقتها وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها كقوله تعالى يسألونك كانك حفي عنها فالاستفهام للانكار وفيم خبر مقدم وأنت مبتدأ مؤخر ومن ذكراها على تقدير مضاف أي ذكرى وقتها متعلق بما تعلق به الخبر وقيل فيم انكار لسؤالهم وما بعده استئناف تعليل للانكار وبيان لبطلان السؤال أي فيم هذا السؤال ثم ابتدىء فقيل أنت من ذكراها أي ارسالك وأنت خاتم الانبياء المبعوث في نسم الساعة علامة من علامتها ودليل يدلهم على العلم بوقوعها عن قريب فحسبهم هذه المرتبة من العلم فمعنى قوله تعالى ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ على هذا الوجه اليه تعالى يرجع منتهى علمها أي علمها بكنهها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا الى أحد غيره سبحانه وانما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها وقد حصل لهم ذلك بمبعثك فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك وأما على الوجه الاول فمعناه اليه عز وجل انتهاء علمها ليس لاحد منه شيء كائنا ما كان فلاى شيء يسألونك عنها وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ عليه تقرير لما قبل من قوله سبحانه فيم أنت من ذكراها وتحقيق لما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه الصلاة والسلام في ذلك الشأن فان انكار كونه صلى الله تعالى عليه وسلم في شيء من ذكراها مما يوهم بظاهره أن ليس له عليه الصلاة والسلام ان يذكرها بوجه من الوجوه فازيح ذلك ببيان ان المنفي عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ذكراها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عنها فالمعنى انما انت منذر من يخشاها ويخاف اهوالها وظيفتك الامتثال بما امرت به من بيان اقترابها وتفصيل ما فيها من فنون الاهوال مما تحيط به لا معلم بتعيين وقتها الذي لم يفوض اليك فما لهم يسألونك عما لم تبعث له ولم يفوض اليك امره وعلى الوجه الثاني هو تقرير لقوله تعالى انت من ذكراها ببيان ان ارساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الانبياء عليهم السلام منذر بمجيء الساعة كما ينطق به قوله صلى الله تعالى عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين ان كادت لتسبقني والظاهر على الاول أن القصر من قصر الموصوف على الصفة والمعنى ما أنت الا منذر لا معلم بالوقت مبين له وانما ذكر صلة المنذر اظهارا لكونها ذات مدخل في القصر لكون الكلام في القصر على منذر خاص ونفي اعلام خاص يقابله وكونه من قصر الصفة على الموصوف بناء على مايتبادر الى الفهم من كلام السكاكي أن المعنى انما أنت منذر الخاشي دون من لايخشى أي ماأنت منذر الامن يخشى دون غيره غير مناسب للمقام على أنه

قيل عليه ان من يخشى من صلة منذر ليس من متعلق انما في شيء ليجعل الجزء الاخير المقصور عليه الانذار وهذا ان صح استلزم عدم صحة ماقرر لكن في صحته مقال اذ يستلزم أيضا ان لايصح انما هو غلام زيد لاعمرو وانما هو ضارب عمراً لازيدا مع شهرة استعمال ذلك من غير نكير فتأمل والظاهر على الثاني ان انما لمجرد التأكيد زيادة في الاعتناء بشأن الخبر وليست للحصر اذلايتعلق به غرض عليه بحسب الظاهر على ماقيل وقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ اما تقرير وتأكيد لما ينبيء عنه الانذار من سرعة مجيء المنذر به لاسيما على الوجه الثاني والمعنى كانهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الانذار الاقليلا واما ردلما أدمجوه في سؤالهم فانهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها وان كان على نهج الاستهزاء بها ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين والمعنى كانهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها الا عشية الخ وهذا الكلام على ما نقل عن الزمخشري له أصل وهو لم يلبثوا الا ساعة من نهار عشيته أو ضحاه فوضع هذا المختصر موضعه وانما أفادت الاضافة ذلك كما في الكشف من حيث انك اذا قلت لم يلبثوا الا عشية او ضحى احتمل أن تكون العشية من يوم والضحى من آخر فيتوهم الاستمرار من ذلك الزمان الى مثله من اليوم الآخر اما اذا قلت عشيته او ضحاه لم يحتمل ذلك البتة وفي قولك ضحى تلك العشية ما يغني عن قولك عشية ذلك النهار أو ضحاه وقال الطيبي انه من المحتمل أن يراد بالعشية أو الضحى كل اليوم مجازا فلما أضيف افاد التأكيد ونفى ذلك الاحتمال وجعله من باب رأيته بعيني وهو حسن ولكن السابق ابعد من التكلف ولا مانع من الجمع وزاد الاضافة حسنا كون الكلمة فاصلة واعتبر جمع كون اللبث في الدنيا وبعضهم كونه في القبور وجوز كونه فيهما واختار في الارشاد ما قدمنا وقال ان الذي يقتضيه المقام اعتبار كونه بعد الانذار أو بعد الوعيد تحقيقاً للانذار وردا لاستبطائهم والجملة على الوجه الاول حال من الموصول كانه قيل تنذرهم مشبهين يوم يرونها في الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الانذار بها الا تلك المدة اليسيرة وعلى الثاني مستانفة لا محل لها من الاعراب هذا ولا يخفى عليك ان الوجه الثاني وان كان حسناً في نفسه لكنه مما لا يتبادر الى الفهم وعليه يحسن الوقف على فيم ثم يستأنف أنت من ذكراها لئلا يلبس وقيل أن قوله تعالى فيم الخ متصل بسؤالهم على أنه بدل من جملة يسألونك الخ أو هو بتقدير القول أي يسالونك عن زمان قيام الساعة ويقولون لك في أي مرتبة أنت من ذكراها أي علمها أي ما مبلغ علمك فيها أو يسالونك عن ذلك قائلين لك في أي مرتبة أنت الخ والجواب عليه قوله تعالى الى ربك منتهاها ولا يخفى ضعف ذلك وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه عن عائشة قالت ما زال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسال عن الساعة حتى أنزل الله تعالى عليه فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها فانتهى عليه الصلاة والسلام فلم يسأل بعدها وأخرج النسائي وغيره عن طارق بن شهاب قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها فكف عنها وعلى هذا فهو تعجيب من كثرة ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم لها كانه قيل في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها والمعنى أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها ونظر فيه ابن المنير بان قوله عز وجل يسألونك كانك حفي عنها يرده اذ المراد انك لا تحتفي بالسؤال عنها ولا تهتم بذلك وهم يسألونك كما يسأل الحفي عن الشيء أي الكثير السؤال عنه وأجيب بانه يحتمل أنه لم يكن منه صلى الله تعالى عليه وسلم أو لا احتفاء ثم كان وان سؤالهم هذا ونزول الآية بعد وقوع الاحتفاء وأنت تعلم ما في ذلك من البعد وقرأ أبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيصن وابن مقسم وأبو عمرو في رواية منذر بالتنوين والاعمال وهو الاصل في مثله بعد اعتبار

المشابهة والاضافة للتخفيف فلا ينافي أن الاصل في الاسماء عدم الاعمال والاعمال عارض للشبه والوصف عند اعماله واضافته للتخفيف صالح للحال والاستقبال واذا أريد الماضي فليس الا الاضافة كقولك هو منذر زيد أمس وهوهنا على ما قيل للحال لمقارنة يخشى ولا ينافي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم منذر في الماضي والمستقبل حتى يقال المناسب لحال الرسالة الاستمرار ومثله يجوز فيه الاعمال وعدمه ثم المراد بالحال حال الحكم لا حال التكلم وفي ذلك كلام في كتب الاصول فلا تغفل والله تعالى أعلم

سورة عبس

وتسمى سورة الصاخة وسورة السفرة وسميت في غير كتاب سورة الاعمى وهي مكية بلا خلاف وآيها اثنتان واربعون في الحجازي والكوفي واحدى واربعون في البصري وأربعون في الشامي والمدني الاول ولما ذكر سبحانه فيما قبلها انما أنت منذر من يخشاها ذكر عز وجل في هذه من ينفعه الانذار ومن لم ينفعه فقال عز من قائل

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ إِن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ الخ روى أن ابن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرم بن رواحة بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي وقيل عبد الله بن عمرو وقيل عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري والاول أكثر وأشهر كما في جامع الاصول وأم مكتوم كنية أمه واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية وغلط الزمخشري في جعلها في الكشاف جدته وكان أعمى وعمى بعد نور وقيل ولد أعمى ولذا قيل لامه أم مكتوم اتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يناجيهم ويدعوهم الى الاسلام رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم فقال يارسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يكرمه ويقول اذا رآه مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويقول هل لك من حاجة واستخلفه صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة فكان يصلي بالناس ثلاث عشرة مرة كما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب عن أهل العلم بالسير ثم استخلف بعده أبا لبابة وهو من المهاجرين الاولين هاجر على الصحيح قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ووهم القرطبي في زعمه أنه مدني وأنه لم يجتمع بالصناديد المذكورين من أهل مكة وموته قيل بالقادسية شهيدا يوم فتح المدائن أيام عمر رضي الله تعالى عنه ورآه أنس يومئذ وعليه درع وله راية سوداء وقيل رجع منها الى المدينة فمات بها رضي الله تعالى عنه وضمير عبس ومابعده للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة اجلال له صلى الله تعالى عليه وسلم لايهام ان من صدر عنه ذلك غيره لانه لايصدر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم مثله كما أن في التعبير عنه صلى الله تعالى عليه وسلم بضمير الخطاب في قوله سبحانه ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ ذلك لما فيه من الايناس بعد الايحاش والاقبال بعد الاعراض والتعبير عن ابن أم مكتوم بالاعمى للاشعار بعذره في الاقدام على قطع كلام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وتشاغله بالقوم وقيل ان الغيبة أولا والخطاب ثانيا لزيادة الانكار وذلك كمن يشكو الى الناس جانيا جنى عليه ثم يقبل على الجاني اذا حمي على الشكاية مواجها بالتوبيخ والزام الحجة وفي ذكر الاعمى نحو من ذلك لانه وصف يناسب الاقبال عليه والتعطف وفيه أيضا دفع ايهام الاختصاص بالاعمى المعين وايماء الى أن كل